الإشراقُ الإلهيُّ وفلسفةُ الإسلام

كما تطلع الشَّمسُ بأنوارها ، فتُفجِّرُ الضَّوء المسمَّى النَّهار ، يولَد النَّبيُّ ، فيوجِدُ في الإنسانيَّة ينبوعَ النُّور المسمَّى بالدِّين . وليس النَّهار إلا يقظةَ الحياة تُحَقِّقُ أعمالهَا ، وليس الدِّينُ إلا يقظةَ النَّفس تُحقِّق فضائلَها .

والشمسُ خلقها الله حاملةً طابَعَه الإلهيَّ ، في عملها للمادَّة تُحَوِّلُ به وتُغَيِّر ، والنَّبيُّ يرسله الله حاملاً مثلَ ذلك الطَّابع في عمله تترقَّى فيه ، وتسمو .

وَرَعَشَاتُ الضَّوء من الشَّمس هي قصَّةُ الهداية للكون في كلامٍ من النُّور ، وأشعَّةُ الوحيِ في النَّبيِّ هي قصَّةُ الهداية لإنسان الكون في نورٍ من الكلام .

والعاملُ الإلهيُّ العظيم يعمَلُ في نظام النَّفس والأرضِ بأداتيْنِ متشابهتين : أجرامِ النُّورِ من الشُّموس والكواكب ، وأجرامِ العقل من الرُّسُلِ ، والأنبياء .

فليس النَّبيُّ إنساناً من العظماء يُقرأ تاريخُه بالفكر معه المنطق ، ومع المنطق الشَّكُّ ، ثُمَّ يُدْرَسُ بكلِّ ذلك على أصول الطَّبيعة البشريةِ العامَّة ؛ ولكنَّه إنسانٌ نجمِيٌّ يُقرأ بمثلِ « التِّلسكوب »[1] في الدِّقة ، معه العِلْمُ ، ومع العلم الإيمان ؛ ثُمَّ يُدْرسُ بكلِّ ذلك على أصول طبيعته النُّورانيَّةِ وحدَها .

والحياةُ تُنشئُ علمَ التَّاريخ ، ولكنَّ هذه الطريقةَ في درس الأنبياء (صلواتُ الله عليهم) تجعلُ التَّاريخَ هو يُنْشِئ علمَ الحياة ، فإنَّما النَّبيُّ إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية ، يُقَوِّمُها في فلَكِها الأخلاقيِّ ، ويجذبُها إلى الكمال في نظامٍ هو بعينه صورةٌ لقانون الجاذبيَّة في الكواكب .

ويجيء النَّبيُّ ، فتجيء الحقيقةُ الإلهية معه في مثل بلاغة الفنِّ البيانيِّ ، لتكونَ أقوى أثراً ، وأيسرَ فهماً ، وأبدعَ تمثيلاً ، وليس عليها خلافٌ من الحسِّ . وهذا هو الأسلوبُ الذي يجعلُ إنساناً واحداً فَنَّ النَّاسِ جميعاً ، كما تكونُ البلاغةُ فنَّ لغةٍ

(١) « التلسكوب » : منظار يُقرِّب الأشياء البعيدة ، ويُستعمل لرصد الكواكب والنجوم .

بأكملِها ؛ هو الشَّخصُ المفسِّر إذا تعسَّف النَّاسُ الحياةَ ؛ لا يدرون أينَ يَؤُمُّونَ منها ، ولا كيف يتهَدَّون فيها ، فتضطربُ الملايينُ من البشرية اضطرابَها فيما تنقبض عنه ، وتتهالك فيه من أطماع الدُّنيا ؛ ثُمَّ يُخْلَق رجلٌ واحدٌ ؛ ليكونَ هو التَّفسيرَ لما مضى ، وما يأتي ، فتظهر به حقائق الآداب العالية في قالَبٍ من الإنسان العامل المرئيِّ أبلغَ ممَّا تظهر في قصَّةٍ متكلِّمةٍ مرويَّة .

وما الشَّهادة للنُّبوّة إلا أن تكونَ نفسُ النَّبي أبلغَ نفوس قومه ، حتَّى لَهُوَ في طباعه وشمائله طبيعةٌ قائمةٌ وحدها ، كأنَّها الوضعُ النَّفسانيُّ الدَّقيق ؛ الذي يُنْصَبُ لتصحيح الوضع المغلوط للبشريَّة في عالم المادَّة وتنازع البقاء . وكأنَّ الحقيقةَ السَّاميةَ في هذا النَّبيِّ تُنادي الناس : أن قَابِلُوا على هذا الأصل ، وصحِّحُوا ما اعترى أنفسَكم مِنْ غلَط الحياة ، وتحريفِ الإنسانيَّة .

* * *

ومن ثمَّ فنبيُّ البشريَّة كلِّها مَن بُعِثَ بالدِّين أعمالاً مفصَّلةً على النَّفس أدقَّ تفصيل ، وأوفاه بمصلحتها ، فهو يُعطي الحياةَ في كلِّ عصرٍ عقلها العمليَّ الثَّابتَ المستقِرَّ ، تُنظَّم به أحوالَ النَّفس على مِيْزَةٍ ، وبَصيرة ، ويَدَع للحياة عقلَها العلميَّ المتجدِّدَ المتغيِّر ، تنظَّم به أحوالَ الطَّبيعة على قَصْدٍ وهُدى ؛ وهذه هي حقيقةُ الإسلام في أخصِّ معانيه ، لا يُغني عنه في ذلك دينٌ آخر ، ولا يؤدِّي تأديتَه في هذه الحاجة أدبٌ ، ولا علمٌ ، ولا فلسفةٌ ، كأنَّما هو نَبعٌ في الأرض لمعاني النُّور ، بإزاء الشَّمس نبعِ النُّور في السَّماء .

وكلُّ ذلك تراه في نفس محمَّدٍ ﷺ ؛ فهي في مجموعها أبلغ الأنفس قاطبةً ، لا يمكن أن تعرِف الأرضُ أكملَ منها ، ولو اجتمعت فضائل الحكماء ، والفلاسفة ، والمتألِّهين ، وجُعِلَتْ في نِصَابٍ واحد ؛ ما بلغتْ أن يجيء منها مثلُ نفسه ﷺ . ولكأنَّما خرجت هذه النَّفس من صيغةٍ كصيغة الدُّرَّة في مَحَارتها ، أو تركيبٍ كتركيب الماس في منجَمِه ، أو صفةٍ كصفة الذَّهب في عِرْقه . وهي النَّفس الاجتماعيَّة الكبرى ، من أين تدبَّرْتَها رأيتَها على الإنسانيَّة كالشَّمس في الأفق الأعلى تنبسِط ، وتَضْحَى[1] .

---

(١) « تضحى » : ينتشر ضوءها . والضحى : ضوء الشمس .

وتلك هي الشَّهادةُ له ﷺ بأنَّه خاتَم الأنبياء ، وأنَّ دينَه هو دين الإنسانيَّة الأخير ؛ فهذا الدِّين في مجموعه إن هو إلا صورة تلك النَّفس العظيمة في مجموعها : صلابتُه بمقدار الحقِّ الإنسانيِّ الثَّابت ، لا بمقدار الإنسان المتغيِّر ؛ الذي يكون عند سبَبٍ جَبَلاً صَلداً يَشْمَخ[١] ، وعند سبَب آخرَ ماءً عذْباً يجري .

وهو دين يعلو بالقوَّة ، ويدعو إليها ، ويريد إخضَاعَ الدُّنيا وحكمَ العالم ، ويستفرغ هَمَّه في ذلك ، لا لإعزاز الأقوى ، وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى ؛ وفرقٌ ما بين شريعتِه وشرائع القوَّة : أنَّ هذه إنَّما هي قوَّة سيادة الطَّبيعة ، وتحكُّمها . أمَّا هو ؛ فقوَّة سيادة الفضيلة ، وتغلُّبها ؛ وتلك تعمل للتَّفريق ، وهو يعمل للمساواة . وسيادة الطَّبيعة ، وعملُها للتَّفريق هما أساس العبودية . وغلبة الفضيلة ، وعملُها للمساواة هما أعظم وسائل الحريَّة .

ومن هنا كان طبيعيّاً في الإسلام ما جاء به من : أنَّه لا فضيلةَ إلا وهو يطبع عليها صورةَ الجنَّة بنعيمها الخالد ، ولا رذيلةَ إلا وهو يضعُ عليها صورةَ النَّار الأبديَّة وَقُودُها النَّاسُ ، والحجارة ؛ فلا تنظرُ العينُ المسلمةُ إلى أسباب الحياة نظرةَ الفكر المنازع : يحرصُ على ما يكون له ، ويَشْرَهُ إلى ما ليس له[٢] ، ويمكرُ الحيلةَ ، ويبدعُ وسائلَ الخداع ، ويزيدُ بكلِّ ذلك في تعقيد الدُّنيا . بل نظرة القلب المسالم : يَخلعُ الدُّنيا ، ويَسخو بكل مَضْنُونٍ فيها ، فَيَعِفُّ عن كثيرٍ ، ويعرِف الإنسانيَّة ، ويطمع في غاياتها العليا ، فيعفو عن كثير ، ويُدرك : **أنَّ الحلالَ وإن حلَّ ؛ فوراءه حسابه ، وأنَّ الحرامَ وإن غرَّ ؛ ليس إلا تَعلُّلَ ساعةٍ ذاهبةٍ ، ثُمَّ من ورائه عقابُ الأبد** .

ويخرجُ من ذلك أن يكونَ أكبرُ أغراض الإسلام هو أن يجعلَ من خشية الله تعالى قانونَ وجود الإنسان على الأرض ، فمن أيِّ عِطْفَيه[٣] الْتَفَتَ هذا الإنسان ؛ وجد على يَمْنَتِه ، ويَسْرَته مَلَكَين من ملائكة الله ، يكتبان أعمالَه بخيرها ، وشرِّها ، فهو كالمتَّهَم المُسْتراب به في سياسة النَّفس : لا يمشي خُطوةً إلا بين جاسوسَيْن ، يحصيان عليه حتَّى أسبابَ النِّيَّة ، ويجمعان منه حتَّى نَزَواتِ الكبِد ، ويترجمان عنه حتَّى معانيَ النَّظر .

---

(١) « يشمخ » : يعلو ، ويرتفع .
(٢) « يشره إلى ما ليس له » : يشتد حرصه عليه ، واشتهاؤه له .
(٣) « عطفيه » : جانبيه .

وإذا قامت هذه المحكمةُ الملائكيَّة ، وتقرَّرت في اعتبار النفس ، قام منها على النَّفس شرعٌ نافذٌ ، هو قانون الإرادة المميَّزة ، تُريد الحسناتِ، وتعملُ لها، وتخشَى السَّيئاتِ، وتَنفرُ منها، فإذا معاني الجسد يحكم بعضُها بعضاً، لا لتحقيق الحكومة، والسُّلطة ، ولكن لتحقيق الخير ، والمصلحة ، وإذا نواميسُ الطَّبيعة المجنونة في هذا الحيوان ؛ قد نهضتْ إلى جانبها نواميسُ الإرادةِ الحكيمة في الإنسان ، وإذا كلُّ صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تُهمة عند قاضيها في محكمتها ، وإذا كلُّ ما في الإنسان وما حول الإنسان ، لا يرادُ منه إلا سلامُ النَّفس في عاقبتها ، وإذا معنى السَّلام هو المعنى الغالبُ المتصرِّف بالإنسانيَّة في دُنياها .

وكلُّ أعمال الإسلام ، وأخلاقه ، وآدابه ، فتلك هي غايتُها ، وهذه هي فلسفتُها ، لا يقرِّرها للإنسانيَّة حَسْبُ ، بل يَغْرسُها في الوراثة غرساً بالاعتياد ، والمِران الدَّائم ، لتكونَ علماً ، وعملاً ، فتمكِّنَ لسلام النَّفس بين الأسلحة المسدَّدة إليها من ضَرورات الحياة ، في أيدي الأعداء المتألِّبة[1] عليها من شَهَوات الغريزة .

فليس يعمُّ السَّلام إلا إذا عمَّ هذا الدِّين بأخلاقه ، فشمَلَ الأرض ، أو أكثرَها ؛ فإنَّ قانونَ العالم حينئذٍ يُصبح منترَعاً من طبيعة التَّراحُم ، فإمَّا انتسخَ به قانونُ التنازع الطَّبيعي ، وإمَّا كَسَر مِنْ شِرَّته[2] ؛ ويُولد المولودُ يومئذٍ وتولَد معه الأخلاقُ الإنسانيَّة .

* * *

تقرير معنى الدَّوام لكلِّ أعمال النَّفس حتَّى مثقال الذَّرة من الخير والشَّرِّ ، وضبط ذلك برياضةٍ عمليَّةٍ دائمةٍ مفروضةٍ على النَّاس جميعاً ، هذا هو أساسُ العقيدة الإسلاميَّة ، ولا صلاحَ للإنسانية بغيره يردُّها إلى سبيل قَصْدِها ، فإنَّ من ذلك تكونُ الصِّفة العقلية ؛ الَّتي تَغْلِبُ على المجتمع ، وتُجانِس بين أفراده ، فتوجِّه الإنسانيَّةَ كلَّها نحو المُمْكن من كمالها ، ولا تزال توَجِّهها نحو ما هو أعلى ، وتحكم فاسدَها بصالحها ، وتأخذ عاصيَها بمطيعها ، وتجعل الشَّرفَ الإنسانيَّ غرضَها الأوَّل ؛ لأنَّ الله الحقَّ غرضُها الأخير ؛ فيصبح المرء ـ وهذا دينُه ـ كلَّما

(١) « المتألبة » : المجتمعة ، والمحتشدة .

(٢) « شرته » : أسوأ حرصه .

تقدَّم به العمر ، كَمُلَ فيه اثنان : الإنسان ، والشَّريعة . ولا يعود طالبُ السَّعادة النَّفسيَّة في الدُّنيا كالمجنون يجري وراء ظله ؛ ليُمْسِكَه ، فلا يدرك في الآخر شيئاً غيرَ معرفته : أنه كان في عملٍ باطلٍ ، وسعيٍ ضائع .

والإسلام يحرص أشدَّ الحِرص وأبلغَه على تقرير ذلك المعنى الإلهيِّ العظيم ، لا بالمنطق ، ولكن بالعمل ، ثُم في النَّفس وعواطفِها ، لا في العقل ، وآرائه ، ثُمَّ على وجه التَّعميم دون الاستثناء والخصوص ، وذلك هو سرُّ مشقَّته على النَّفس بما يفرِضُه عليها ، فإنَّ فلسفته : أنَّ هذه النَّفس هي أساسُ العالم ، وأنَّ النِّظامَ الخلُقيَّ هو أساسُ النَّفس ، وأنَّ العملَ الدَّائم هو أساسُ النِّظام ، وأنَّ روحَ العمل الدَّائم تكون فيما يَشُقُّ بعضَ المشَقَّة ، ولا يبلغ العُسْر ، والحَرَج ، كما تكون فيما يَسْهُل بعضَ السُّهولة ، ولا يبلغ الكَسَل ، والإهمال .

وللنَّفس وجهان : ما تُعلِنُ ، وما تسِرُّ ؛ ولا صدقَ لإعلانها حتَّى يصدُقَ ضميرُها ، ولا صلاحَ لجَهْرها حتَّى يصلُحَ السِّرُّ فيها ، ولا يكون الإنسان الاجتماعيُّ فاضلاً بمَشْهَدِهِ حتَّى يكونَ كذلك بغَيْبِه .

وللعالم كذلك وجهان : حاضرُه الذي يمرُّ فيه ، وآتيه الذي يمتدُّ له ؛ ولا يُفلح حاضرٌ منقطعٌ ، لا يُوَرِّث ما بعده ، كما وَرِّث ما قبله ، وما حاضرُ الإنسانيَّة إلا جزءٌ من عمل النَّاس في استمرار فضائلهم باقيةً نامية .

وللنِّظام أيضاً وجهان : نظامُ الرَّغبة على الطَّاعة ، والاطمئنان لها ، ونظام الرَّغبة على الخشية ، والنَّفْرة منها . ولا يستقيم شأنٌ ليس أساسُه الطَّاعة في النَّفس ، ولا يستمرُّ نظامٌ عليه خلافٌ مِنْ فكر العامل به .

وللعمل الدَّائم طريقتان : إحداهما طريقة الجادِّ ، يعمل للعاقبة ، يستَيْقِنُها ، فلا يجد ممَّا يَشقُّ عليه إلا لذَّةَ المغالَبة للنَّصر : كلُّ مرارةٍ من قِبَله هي حلاوةٌ فيه من بَعْدُ ، ولا يعرِف للمِحْنة يُبتلى بها إلا معناها الحقيقيَّ ، وهو إيقاظ نفسه ، فيصبح الصَّبر عنده كصبر المحبِّ على أشياء مِمَّن تحبُّه ؛ صبرٌ فيه من السِّحر ما يكسو الحرمانَ في بعض الأحيان خيالَ الاستمتاع ، ويُذيقُ النَّفسَ في العجز عن بعض أغراضها لذةً كلذَّة إدراكِه .

* * *

تلك هي فلسفةُ الإسلام ؛ لا قِوامَ للأمر فيها ، ولا مِساكَ له إلا بتقرير معنى الدَّوام لكلِّ أعمال النَّفس ، ووضع طابَع الجنَّة على أعمال الجنَّة ، وطابَع النَّار على أعمال النَّار ، وحياطة كلِّ فردٍ من النَّاس حياطةً رياضيةً عمليةً بين السَّاعة والسَّاعة ، بل بين الدَّقيقة والدَّقيقة ، بما يكلَّف من أعمال جسمه ، وحواسِّه ، ثُمَّ أعمال قلبه ونيَّته ، وتعظيم الشَّخصية الرُّوحية دون الشَّخصية المادِّيَّة ، فلا يحاول كلُّ إنسان أن يجعلَ بطنَه في حجْم مملكةٍ ، أو مدينةٍ ، أو قريةٍ ، بما ينتقِصُ من حقوق غيره ؛ بل تتَّسع ذاتيةُ كلِّ فردٍ بما يجبُ له على المجتمع من الواجبات الإنسانيَّة ، وبهذا ، لا بغيره تتعيَّن مقاييس الأخلاق في الأرض : بالمصلحة ، لا باللَّذة ؛ فلا يقع الخطأ ولا التَّزوير ، وتنحلُّ المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياةُ لا تجد من أهلها كلَّ ساعةٍ عُقَداً فيها .

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحدَه الطَّريقةُ لإنشاء طبيعة الخير في النَّاس على نَسَقِها الطَّبيعيِّ ، كما أنَّه هو وحده الطَّريقةُ لتطهير التَّاريخ الإنسانيِّ من أوبائه الاقتصاديَّة ؛ الَّتي جعلته كأنَّما هو تاريخ الأسنان ، والأضراس ، وتركت الناسَ يهدم بعضهم بعضاً ، كما يهدم الجارُ حائط جاره ؛ ليوسِّعَ بيتَه .

وأساسُ العمل في الإسلام إخضاعُ الحياة للعقيدة ، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة ؛ فيكونُ الفقير مُعْدِماً ، ويتعفَّف ، ويكون الغنيُّ موسِراً ، ويتصدَّق ، ويكون الشَّرِهُ طامعاً ، ويُمْسِك ، ويكون القويُّ قادراً ، ويُحْجِم ، وكما قال العرب في تحقيق ناموس[1] الأنَفة ، والحميَّة ، وغلبتِه على النَّاموس الاقتصادي : « تجوع الحرَّةُ ولا تأكل بثَدْييها »[2] .

* * *

تريد الإنسانيَّة امتداداً غيرَ امتدادها التِّجاريِّ في الأرض ، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانَها غير الحيوان الذي فيه ؛ وإذا قاد الغراب قوماً فإنَّما هو كما قال شاعرنا : يمرُّ بهم على جِيَف الكلاب . . . والإنسانيَّةُ اليوم في مثل ليل

(١) « ناموس » : قانون .

(٢) « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » : مَثَل يُضرب في الحث على صون النفس في الضراء دون إدخالها فيما يدنسها . وانظره في : الفاخر (ص١٠٩) وفصل المقال (ص٢٨٩) والمستقصى (٢/ ٢٠) ومجمع الأمثال (١/ ١٢٢) .

حَوْشِيٍّ[1] مظلم اختلط بعضه في بعضٍ ، وليست معاني الإسلام إلا الإشراقَ الإلهيَّ على هذه الكَثَافة الماديَّة المتراكمة ، وإذا رُفِع المصباحُ ؛ لم تجد الظَّلامَ إلا وراء الحدود الَّتي تنتهي إليها أشعَّته .

وقد علمنا من طبيعة النَّفس : **أنَّ إنسانيَّة الفرد لا تعظُم ، وتسمو ، وتتخيَّلُ ، وتفرحُ فرحها الصَّادقَ ، وتحزنُ حزنَها السَّامي ؛ إلا أن تعيشَ في محبوبٍ** ، فإنسانيَّةُ العالَم لا تكون مثلَ ذلك إلا إذا عاشت في نبيِّها الطَّبيعي ، نبيٍّ أخلاقها الصَّحيحة ، وآدابِها العالية ، ونظامها الدَّقيق ، وأين تجد هذا المحبوبَ الأعظم إلا في محمَّدٍ ، ودينِ محمد ؟

وعجيب أن يجهلَ المسلمون حكمةَ ذكر النَّبيِّ العظيم خمسَ مرات في الأذان كلَّ يومٍ ، يُنادَى باسمه الشَّريف ملء الجوِّ ، ثُمَّ حكمةَ ذكره في كلِّ صلاةٍ من الفريضة ، والسُّنَّة ، والنَّافلةِ ، يُهْمَس باسمه الكريم ملء النَّفس ، وهل الحكمةُ من ذلك إلا الفرضُ عليهم ألا ينقطعوا من نبيِّهم ولا يوماً واحداً من التَّاريخ ، ولا جزءاً واحداً من اليوم ؛ فيمتدُّ الزَّمن مهما امتدَّ والإسلام كأنَّه على أوَّله ، وكأنَّه في يومه لا في دهرٍ بعيد ؛ والمسلم كأنَّه مع نبيِّه بين يديه ، تبعثه روحُ الرِّسالة ، ويَسْطَع في نفسه إشراقُ النُّبوَّة ، فيكونُ دائماً في أمره كالمسلم الأوَّل الذي غيَّر وجهَ الأرض ؛ ويظهر هذا المسلم الأوَّلُ بأخلاقِه ، وفضائلِه ، وحَمِيَّته في كلِّ بقعةٍ من الدُّنيا مكانَ إنسان هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ؛ فإنَّ كلَّ أرضٍ إسلاميَّة يكادُ لا يظهر فيها إلا إنسانها التَّاريخيُّ بجهله ، وخرافاته ، وما وَرِثَ من القِدَم ؛ فهنا المسلم الفرعونيُّ ، وفي ناحيةٍ المسلم الوثنيُّ ، وفي بلدٍ المسلم المجوسيُّ ، وفي جهةٍ المسلم المعطِّلُ . . . وما يُريدُ الإسلام إلا نفسَ المسلم الإنسانيِّ .

أيها المسلم !

لا تنقطعْ مِنْ نبيِّك العظيم ، وعشْ فيه أبداً ، واجعلْه مثلَكَ الأعلى ؛ وحين تذكره في كلِّ وقتٍ ؛ فكنْ كأنَّك بين يديه ؛ كن دائماً كالمسلم الأوَّل ؛ كن دائماً ابنَ المُعْجزة .

* * *

(١) « حوشي » : الحوشيُّ من الليالي : المظلم الهائل .